بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

آفـــات على الطـــريق

الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه المتفرد بالكمال والجلال صاحب الملكوت رب الأرباب ورب كل شيئ ومليكه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أمره بين الكاف والنون وإذا أراد ان يقول لشئ كن فيكون وأصلى واسلم على النبي الأمين وعلى أهله وأصحابه أجمعين والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعـــــــــــــــــــــــد

أخي السائر إلى الله

الطريق إلى الله كالطرق الحسية تماماً.. تجد فيها أنفاقا مظلمة، ومنحنيات خطيرة، ومطبّات مرهقة، و "كباري" علوية.. كما تجد أحيانا على جنبتي الطريق حدائق فاتنة وسبلا متفرعة.. ومن لم ينتبه لمثل هذه، ولم يقده للخروج منها خبير بصير ضل -ولابد- في الطريق أو انقطع.

أخي الكريم:

إن معرفة آفات الطريق من المهمات التي ينبغي للسائر الإلمام بخباياها.

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى:"ولا يتم المقصود إلا بالهداية إلى الطريق، والهدايا فيها، وأوقات السير من غيره، وزاد المسير، وآفات الطريق،

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : }لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا{ المائدة:84 ، قال سبيلا وسنة .

وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، فالسبيل: الطَريق، وهي المنهاج. والسنة: الشرعة، وهي تفاصيل الطريق وحزوناته، وكيفية المسير فيه، وأوقات المسير،

وعلى هذا فقوله : "سبيلا وسنة" يكون السبيل : المنهاج ، والسنة : الشرعة، فالمقدم في الآية للمؤخر في التفسير، وفي لفظ آخر: سنة وسبيلا، فيكون المقدم للمقدم، والمؤخر للمؤخر ، فجعل من الهداية في الطريق التخلص من آفات الطريق وحزوناته ومعرفة تفاصيل تلك الحزونات..

فتنبه معي لأخطر هذه الآفات – عافانا الله وإياك منها -:

*** الآفة الأولى : الخوف من وحشة التفرد :**

قال بعض السلف: "عليك بطريق الهدى ولا يضرنك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا يغرنك كثرة الهالكين ."

ومن سنن الله الربانية الكونية أن أهل الحق دائما قلة.. هذا أصل ينبغي ألا يفوتك ،

قال سبحانه : }إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ{ ص:42

وقال سبحانه وتعالى : }وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ{ سبأ:31

وعلى العكس : تجد وصف الكثرة دوما مع أهل الباطل،

قال سبحانه: }وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ{ الأعراف :102

وقال سبحانه وتعالى: }وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ{ الأنعام:611

وقال سبحانه وتعالى: }وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{ المائدة:94

فإذا تبين لك ذلك، فإياك أن تستوحش من قلة السائرين معك على الطريق، فإن أكثر السائرين نكصوا على أعقابهم حين رأوا الجمهرة الغالبة على عكس طريق السير أو على جنبات هذا الصراط. فاثبت ولا تحزن.

الآفة الثانية : فضول الكلام والخلطة :

وهذه أخطر تلك الآفات.. فضول الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.. أن يصير لقاء الناس شهوة وعادة ينقطع بها عن

المقصود.. وقد قيل: إذا رأيت نفسك تأنس بالخلق وتستوحش من الخلوة، فاعلم أنك لا تصلح لله.. وإن من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس.

وللعزلة – أيها الأخ الكريم – مزايا، فإن الاجتماع بالناس لا يخلو من آفات أهونها أن تتزين للخلق..

وقد ذكر عن بعض أهل الحديث أنه قال: "لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى حذيفة المرعشي، أخشى أن أتزين له فأسقط من عين الله."

الآفة الثالثة: النفق المظلم :

قد يصادف السائرُ في طريقه نفقا مظلما لا يستطيع أن يميز فيه طريقه من الطرق الأخرى، ما لم تكن أضواء اليقين كاشفة، ومسالك الطريق معروفة،كيلا يضيع السائر مساره، أو يتناثر أشلاء تحت وقع الحادثة، أو يسرف في التفاؤل عندما يبصر نورا في آخر النفق قد يكون وهم سراب.

إن مثل هذا النفق كفتن الخلاف بين المسلمين، إذ بينما يسير السائر في ركبه الميمون، والطريق سالكة، وهو ينتظر الوصول إلى المحطة التالية، فجأة يظلم الطريق تماما كالذي يدخل النفق... يفاجأ بالظلام الدامس بعد النور المبهر.. اصطدام بعض المسلمين فيما بينهم، وبغي بعضهم على بعض، فتلتفّ الظلمات، و تنطفئ الأنوار، ويضطر السائر المسكين إلى ركوب الظلمة ودخول النفق، فإذا لم تكن البصائر على يقين والإبصار على وضوح، فالكارثة ستقع لا محالة، ويكون التيه الذي لا يدري فيه ما المخرج.

ولذا، فالأنوار الكاشفة في هذا النفق تتمثل في الاستمساك بوضوح المنهج: الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، قال الله سبحانه: }وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ{ التوبة:001

لا بد أن تنتبه إلَى }وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ {

فالإحسان: الرؤية، ليس مجرد الاتباع، و إنما إحسان الإتباع.. والإحسان أن ترى، قال صلى الله عليه وسلم: " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه".. هذا أول مخرج من النفق.

أما النور الثاني المخرج من هذا النفق المظلم؛ فهو ألا تشغل نفسك بالمناقشات والجدال والردود، وإنما }بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ{ القيامة:41 . .اعرف طريقك وامضِ، فإن كان ولا بد فألْقِ النصيحة وانطلق، فأخسر الناس صفقة من انشغل بالناس عن نفسه، وأخسر منه صفقة من انشغل بنفسه عن الله.. فاعرف كواشف الأنفاق.. لتخرج من هذا الظلام بسلام.

الآفة الرابعة : جسر على الطريق :

وفي الطريق أيها السائر الحبيب – جسر لابد من تجاوزه وعبوره، إذ إن هذا شأن السالكين إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، بل و هو من شأن الأنبياء والمرسلين.. ذلكم الجسر هو الابتلاء والمحن التي تصيب السائر.

فلا بد لهذا الطريق من أن يصقله الابتلاء، وأن تظهر معدنه المحنة. قال الله تعالى :

}أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ.{(3) العنكبوت.

و قد كان أول تبشير للرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة إنذاره بالإخراج ..

قال ورقة : ما أتى رجل بمثل ما آتيت به إلا عودي.. وقال الراهب للغلام: أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى.. وقيل للشافعي: أحب إليك أن يمكن الرجل أو يبتلى؟ فقال: لا يمكّن حتى يبتلى.

فالجسر إلى التمكين في هذا الطريق هو الابتلاء.. ولابد من الصبر فيه والاحتساب، والرضا عن الله تعالى وبه، فإنه جسر الوصول.. وقد حفت الجنة بالمكاره..

يقول ابن القيم:"وإن تأملت حكمته سبحانه تعالى فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات، وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل لعبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنحة في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة، ومنّة عظيمة، تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان "

وللمحن في هذا الطريق خصائص ومميزات، فكما أن المسلم يجب ألا ينفك عن عبادة ما..

}قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ{ الأنعام:261 ،

فلابد أن يكون شعوره بالابتلاء هكذا: أنه في عبادة، يدوم معه في كل حركاته وسكناته، حتى يستصحب نية العبد على البلاء، واحتساب الأجر عند السميع البصير:

}الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ{(219) الشعراء.

وهذا الجسر خطير.. جسر الابتلاء.. فإن كثيرا من السالكين ضعفت قوته عن عبوره فرجع القهقرى وترك الطريق.

ثم يطالعك جسر آخر على الطريق.. وهو النفس – نعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا–.. يقول ابن القيم في المدارج: "فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله – عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلابد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه، وإنه يسير على من يسّره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعاب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج وعليق وشبرق، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلجين. فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخباث، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير.

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته. والشيطان على قُلة ذلك الجبل، يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه. فتتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المُخوّف على قُلته وضعف عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع، والمعصوم من عصمة الله.

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قلته، انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانا، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق، ومشقة عقبتها، ويرى طريقا واسعا آمنا يفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام وفيه الإقامات، قد أعدت لركب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح: قوة وعزيمة، وصبر ساعة وشجاعة نفس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم "

فالنفس أمارة بالسوء، داعية إلى المهالك، طامحة إلى الشهوات، ولذا فهي أيضا جسر لابد من عبوره.. أتى رجل إلى أبي علي الدقاق. فقال: قطعت إليك مسافة، فقال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة تصل الى المطلوب. فلا بد من عبور جسر النفس.. شهواتها.. وملذاتها.. أهوائها.. وآمالها.. لابد أن تعبر مرحلة "نفسي وما تشتهي" لتصل عبر جسر نفسك إلى ما يرضي ربك.

ويزيدك بصيرة في الأمر قول ابن القيم – رحمه الله في طريق الهجرتين:

"وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل، وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة. فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت السير وصلت حميدة مسرورة جزلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها لساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو – والله – الهلاك والعطب لو كنت تعلمين.

فإن استصعبت عليه، فليذكرها ما أمامها من أحبابها وما لديهم من الإكرام والإنعام. وما خلفها من أعدائها، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء؛ فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مسيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في طلب مصيرها. ولابد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة وشأنهم حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره،ولا يغتر بكثرة المنقطعين، فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم.

فياقرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: }قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ(26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ27)({ يس .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع، وذوب النفس، وبطء سيرها، فكلما أدمن على السير، وواظب عليه غدوا ورواحا وسحرا، قرب من المنزل، وتلطفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين

وسيماهم، فتبدّلت وحشته أنسا، وكثافته لطافة، ودرنه طهارة "

هذا هو جسر النفس.. البلاء الأكبر.. والعائق الأشد.. يشبه الجسر المعلق الذي لا جوانب له يستند عليها السائر... فهو خطر جدا لابد عند المرور عليه من التركيز والهدوء.. والتيقظ والانتباه لكل حركة يد ونقلة رجل.. وإلا.. فالسقوط.

نعم: إنه جسر واهن من كثرة الذنوب والمعاصي.. لذا كان على السائر أن يأخذ حذره.. ويتدرب المرة بعد المرة.. ويحاول ويعيد، ثم يحاول ويعيد حتى ينجح في ترويض نفسه على عبور تلك الجسور.

وبعد – أيها السائر الحبيب:

فيا سعادة من جاهد تلك الآفات. نعم: إنها أشواك، لكنها أشواق.. يستشعر فيها السائر لذة الألم لله واحتساب الأجر من الله.. فدس الشوك، وسر إلى الله..

فقد اقتضت سنة الخالق أن العسل لا يحصل عليه إلا بلسع النحل، فما كان للمسافر إلى الله أن يحصل على ما يفيده في طريق وصوله إلا بشيء من المكابدة والعسر.

يقول ابن القيم – عليه رحمة الله:- "وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة،فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب ومطالعة الغايات،وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وإن من رافق الراحة حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة،فإنه على قدْر التعب تكون الراحة.."

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كاتب المقالة : منقول
تاريخ النشر : 27/10/2010
من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com